جلال الدين الرومي

رجل العرفان وشاعر الصوفية الكبير

ريا فحص
كاتبة لبنانية

في منتصف القرن التاسع عشر قام الشاعر الانكليزي فيتزجيرالد بنقل "رباعيات الخيام" من الفارسية الى الانكليزية، ونقلت بعدها هذه الاشعار الى معظم لغات العالم بما فيها العربية وغنت ام كلثوم "ما أضيع اليوم الذي مر بي من غير ان اهوى وان أعشق" وغنى مطربون عالميون آخرون رباعيات اخرى، وظهر الخيام كما اراد له فيتزجيرالد الظهور شاعر الحب والخمر والاسئلة وليس فقط الفلكي والفيلسوف كما كان معروفاً قبل فيتزجيرالد.

اليوم، الى جانب زيارة الغرب العسكرية للشرق- لافغانستان تحديداً- هناك زيارة ثقافية ايضاً. فقد اصبح لافتاً الاهتمام الذي تبديه الاوساط الثقافية الغربية بشعر "مولانا" جلال الدين الرومي البلخي رجل العرفان الكبير واكبر شعراء الصوفية، وهو من مواليد مدينة بلخ التي تقع اليوم في افغانستان. هذا الاهتمام وصل الى مستوى ان مقاطع من شعر مولانا اصبحت على اغلفة بطاقات المعايدة، حتى ان مادونا المغنية الاميركية الشهيرة استعارت بعض عباراته في احدى اغنياتها. ان هذا الغزو الجميل لبلخ وتقاسم الثروات الثقافية كان بلا شك سيسعد مولانا جلال الدين الرومي الذي اسعد بدوره بشعر الحب ملايين القراء مريدين ومحبين في تطوافه من افغانستان الى تركيا الى سوريا حتى فلسطين. ولابد من ان مشهد القتل المستمر في افغانستان باسم الدين بعد الغزو قد دفع النخب المهتمة والغيورة للبحث عن ما في تراث افغانستان ولد اكبر شعراء العرفان والتصوف والحب والزهد، أي شاعر العلاقة النقية المباشرة مع الله والناس، ليظهروا للعالم اجمع انه هنا في افغانستان من حب الله والناس، ليظهروا للعالم اجمع انه هنا في افغانستان ولد اكبر شعراء العرفان والتصوف والحب والزهد، أي شاعر العلاقة النقية المباشرة مع الله.

لقد كان جلال الدين الرومي البلخي مدرساً للفقه، تحول الى التصوف على يد شمس الدين التبريزي –وهو من كبار المتصوفة- الذي سأله يوماً: لماذا تاخذ نفسك بدراسة الفقه؟ فأجاب المولوي: لأعرف الشرع، فرد التبريزي: اليس الاجدى ان تعرف صاحب الشرع. لقد اختار المولوي واستاذه التبريزي الطريقة الصوفية (أضعف الايمان أي القلب) اسلوباً للاعتراض على الظلم والاضطهاد والدفاع عن المجتمع بوجه الغزو المغولي للبلاد الاسلامية قبل ثمانية قرون.

بالرغم من ولادة مولانا في بلخ فهو لم يبق فيها، لقد هاجر في صغره مع والده حتى استقرا في قونية عاصمة الدولة السلجوقية حينذاك، الواقعة اليوم جنوب تركيا. وفيها اقام حتى توفي في اواخر القرن الثالث عشر الميلادي الذي ولد في بدايته. وفي قونية له مقام تحول مع الايام الى مزار عام لمريديه ومحبيه من كافة شعوب الارض، ومع انه دفن في قونيه فله مقام آخر في بلخ في مكان المدرسة التي تلقى فيها علومه الاولى. في العام المنصرم كانت الذكرى الثمانمائة لميلاد المولوي (ولد العام ١٢٠٧م) وجرت احتفالات بهذه الذكرى غرباً وشرقاً وتم تبادل الزيارات بين الفرق المولوية خاصة تلك التي في ايران وتركيا وسوريا، ما جعل سيرة مولانا ومسيرته محط اهتمام الصحافة وحديث الاعلام وعاد النقاش حياً حول عقائد "المولوية" اتباع مولانا وافكارهم وسلوكياتهم، تهجماً ودفاعاً.

لقد انتشرت المولوية بشكل خاص في تركيا، قونية واسطنبول ومدن اخرى ثم انتقلت الى ايران بسهولة بسبب اللغة الفارسية التي كان مولانا يكتب بها وانتقلت الى سوريا الى مدينة حلب تحديداً لقربها الجغرافي من تركيا وهناك "تكية" مولوية للآن ولكنها مهجورة في مدينة طرابلس في شمال لبنان. كذلك كانت تعتبر التكية المولوية في القدس من اهم التكايا التي اقامها العثمانيون.

ارتبط ذكر المولوية بالرقص على ايقاع موسيقي خاص يشكل صوت آلة الناي اهم ركائزه، ويدور المتصوفون المولويون حول انفسهم في رقصة جماعية بخطوات مدروسة وحركات خاصة لها تفسيراتها الفلسفية لديهم فيد مفتوحة نحو السماء ويد نحو الارض يعني ان العطاء من السماء يمر عبر الانسان الى الارض والناي الذي كان غصناً اخضر يشارك المولوي الشكوى من الم الانفصال عن الشجرة التي اقتطع منها كما حال روح المولوي التي فاضت عن روح الله وتريد الوصل ومعاودة الاتصال.

تتشابه عقائد المولوية مع عقائد الفرق الصوفية الاخرى وطرقهم – كالايمان بوحدة الوجود- لكنها تتطور عند المولوية ايماناً بوحدة الاديان فيصبح لا فرق عندهم بينها، لا فرق بين الاسلام والنصرانية واليهودية وسائر الاديان حتى غير التوحيدية منها ويظهر ذلك في قصائد كثيرة للرومي: ايها النور المشرق انظر الى العمامة احكمتها فوق رأسي
انظر الى زنار زرادشت حول خصري
احمل البخور لابل أحمل النور
مسلم انا لكني نصراني، ابراهيمي وزرادشتي
ليس لي سوى معبد واحد، مسجداً كان او كنيسة
او بيت اصنام
وجهك الكريم فيه غايتي
احس انني عنصر من عناصر الطبيعة او نقطة
في البحر
وهي الفكرة ذاتها التي تظهر عند شيخ الصوفية الأكبر ابن عربي:
لقد صار قلبي قابلا كل صورة
فمرعى لغزلان ودير
لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف
والواح توراة ومصحف
قرآن
ادين بدين الحب انى توجهت
ركائبه فالحب ديني
وايماني

في اعتقاد المولوية ان جميع الدروب تنتهي الى الله وعلى كل انسان ان يختار الدرب التي يراها افضلها، لذلك دخل العديد من اليهود والنصارى في الطريقة المولوية لقد اختار المولوية عناء الشعر والموسيقى والرقص حتى التلاشي سبيلاً للتقرب من خالقهم والفناء في ذاته.

عسى ان يعاد احياء ذكرى الحلاج امام صوفية بغداد وشهيد الحب الالهي كما اعادها اول القرن الماضي المستشرق الفرنسي "لويس ماسينيون" الذي زار بغداد عام ١٩٠٨ وصور قبر الحلاج ونشر ديوانه واخباره. على امل ان يغني مغنو العراق من بغداد وبكل اللغات "انا من اهوى ومن اهوى انا" لوحدة الوجود ووحدة العراق، لبناء الجسور بين الثقافات عبر الغناء والشعر وتقاسم التراث لاعبر الشركات الامنية والتجارية.

من نوابغ الكُتاب الاتراك:

هاليكارناس بالكجي سي ١٨٨٦-١٩٧٣

احسان الملائكة
١-٣

(حين افكر بالكاتب التركي الذي يستحق جائزة نوبل فان اول اسم يخطر ببالي هو هاليكارناس بالكجي سي)
بشار كمال
هاليكارناس بالكجي سي، هو اللقب الذي اطلقه على نفسه الكاتب التركي الشهير: جواد شاكر باشا، فشاع اللقب حتى اهمل الاسم الاصلي، انه الكاتب الروائي، والباحث الاكاديمي، والمؤرخ المدقق، والرسام الكاريكاتوري، والبحار المغامر، عالم النبات، شاعر البحر وزرقة السماء، رائد نظرية مثيرة في تاريخ منطقة بحر (ايجة) والاناضول، الرجل الشجاع الذي استطاع بمفرده وبجهوده الشخصية ن يحول مدينة (بودروم) المهملة حتى مجيئه اليها الى احدى اهم مراكز السياحة في تركيا، وهو صاحب الشخصية الغريبة المناقضة لكل ما هو مألوف في حياة الناس اليومية، هو جواد بن شاكر باشا، الملقب هاليكارناس بالكجي سي جده لابيه: مصطفى عاصم بيك، كولونيل البحر في الدولة العثمانية خلف ولدين وبنتاً واحدة، الابن الاكبر: احمد جواد باشا ظل يترقى في مناصب الدولة حتى بلغ مرتبة الصدر الاعظم (رئيس الوزراء) في عهد السلطان عبد الحميد الثاني.

اما الابن الثاني محمد شاكر باشا (والد هاليكارناس بالكجي) فقد كان ضابطاً في الجيش العثماني، ثم عين ملحقاً عسكرياً في احدى السفارات في الخارج، وتم ترفيعه الى رتبة (فريق) في عام ١٩٠٨ ثم أحيل على التقاعد استجابة لطلبه، وفي عهد تقاعده عين مدرساً فخرياً للتاريخ في ثانوية (غلاطة سراي) الشهيرة باستانبول.

كان محمد شاكر باشا يملك مزرعة في بعض نواحي استانبول، واعتاد ان يتردد عليها بين الحين والاخر، وفي احد ايام رمضان عام ١٩١٩ بينما كان في المزرعة اصيب بطلقة نارية قتلته في الحال، قيل ان الرصاصة انطلقت من سلاح كان ابنه (جواد) يحمله في يده من هذا اليوم اصبح ذلك هو السر الذي ظل جواد (هاليكارناس بالكجي) حريصاً على اخفائه حتى وفاته.

من مؤلفات محمد شاكر باشا، والد بالكجي سي ما يلي:
١- التاريخ العثماني في خمسة مجلدات
٢- صلاح الدين الايوبي
٣- كتب ادبية مترجمة عن الاداب الاوربية.. الخ

فيما عدا تأثيرات والده وعمه عليه، فان (بالكجي) وقع تحت تأثيرات اوربية عن طريق بعض نساء اسرته المثقفات وفي مقدمتهن الاميرة "فخر النساء" عقيلة الامير زيد بن الشريف حسين، وكانت رسامة ذات شهرة كبيرة، فضلاً عن نساء اخريات معروفات في دنيا الفن بتركيا.

مرحلة الدراسة والحياة العملية

ولد جواد بن محمد شاكر باشا، الملقب (هاليكارناس بالكجي) في جزيرة كريت سنة ١٨٨٦، اسم امه "ساري عصمت هانم" وهي يونانية الاصل، ولد لابويه ستة اطفال توفي احدهم.

انقضت السنوات الثلاث الاول من حياة (جواد) في (أثينا) بعد ذلك انتقلت الاسرة الى استانبول حيث اكمل جواد دراسته الابتدائية في هذه المرحلة ابدى الصبي تفوقاً في اللغة الانجليزية، ما يسر له دخول ثانوية "روبرت كوليج" من دون المشاركة في امتحان القبول بها وقد تخرج في هذه الثانوية بتفوق ظاهر. هذه المدرسة فتحت لجواد افاقاً ثقافية واسعة وكان لمكتبتها الفضل الاكبر في تحقيق ذلك. كان يلتهم كتبها التهاماً، حتى وصل الامر بمدير المكتبة الى ان يمنع هذا التلميذ من الاستعارة مختلقاً مختلف الاعذار، فبدأ هذا يستعين بزملائه التلاميذ ليستعيروا له الكتب بأسمائهم!!

لم تكن هذه هي العقبة الاولى في طريق توسيع ثقافته ايام دراسته في "روبرت كوليج" اذ كان على الطلبة في القسم الداخلي وهو منهم، ان يخلدوا الى النوم في ساعة مبكرة من الليل، وكانت الانوار تُطفأ في تلك الساعة. احضر جواد مصباحاً يدوياً، وكان يشعل المصباح تحت الغطاء السمك ويشرع في القراءة والكتابة والترجمة ساعات طويلة من الليل. تخرج جواد في المدرسة سنة ١٩٠٤، وكان يرغب في دخول الكلية العسكرية البحرية كي يصبح بحاراً، لكن والده محمد شاكر باشا عارض الفكرة وارسل ولده الى انجلترا كي يدرس في جامعة اكسفورد، ويتخصص في تاريخ العصور الحديثة، وبعد اربع سنوات اكمل جواد دراسته وعاد الى استانبول عام ١٩٠٨،

كان لجامعة اكسفورد اثر عظيم في التكوين الثقافي والنفسي لجواد شاكر، اذ ساهمت في اطلاعه على مصادر الثقافة الاوربية الحديثة. ولدى عودته الى استانبول شرع في العمل الصحفي كاتباً، ورساماً كاريكاتورياً، ومصمماً لاغلفة المجلات، والكتب، ثم بدأ ينشر القصص والروايات والريبورتاجات الصحفية.

في نهاية الحرب العالمية الاولى غزت الجيوش الانجليزية والفرنسية واليونانية المتحالفة اراضي تركيا واحتلتها فأصيب جواد شاكر بصدمة نفسية اليمة لما تعرض له وطنه من مذلة وهوان على ايدي جنود الاحتلال الغربيين، شانه شان بقية المتنورين الاتراك وكان بوده ان ينضم الى جيش التحرير الذي كان يقوده مصطفى كمال باشا، لكن ظهور اعراض مرض السرطان على رئته منعه من تحقيق رغبته وكان المحتلون يتعقبون امثاله من المثقفين، فهداه التفكير الى التنكر بزي الدراويش والاختباء في احدى التكايا فترة من الزمن بين المتصوفة والدراويش.

وفي اثناء تحقيق الانتصارات الاولى لجيش التحرير بزعامة مصطفى كمال انضم جواد شاكر الى هيئة تحرير مجلتين اسبوعيتين كانتا تصدران وقتئذ باسمي "الشهر المصور" و"الاسبوع المصور" فكان يقوم بالرسم والتصميم والترجمة فيهما، كان احيانا يترجم مائة صفحة في اليوم الواحد وينشر انتاجاته بأسماء مستعارة.

في احد اشهر عام ١٩١٩ استدعي جواد شاكر الى المحكمة بتهمة قتل والده،لكن التهمة لم تثبت عليه، فصدر الحكم عليه بالبراءة، بعد انتهاء الجلسة التفت الحاكم الى جواد شاكر وقال له "اياك ان تمثل امامي مرة اخرى" لكن القدر كان له رأي اخر فقد وقف جواد شاكر مرة ثانية امام هذا الحاكم بعد سنوات قلائل ففي شهر نيسان من عام ١٩٢٥ نشر جواد شاكر في احدى الصحف وتحت اسم مستعار مقالاً اقام عليه القيامة في اوساط الحكومة الجمهورية الفتية. كان عنوان المقال كما يلي: (السجناء المحكومون بالاعدام كيف يتوجهون نحو المشنقة) فوراً احيل جواد شاكر ومدير الصحيفة "زكريا سرتيل" الى محكمة الاستقلال ووجهت اليهما تهمة تحريض الجنود ضد الخدمة العسكرية، ثم صدر الحكم بنفي مدير الصحيفة الى بلدة "سينوب" ونفي جواد شاكر الى مدينة بودروم لمدة ثلاث سنوات. ان بودروم هي تحريف كلمة "بيترونيوم" نسبة الى القديس بيتر "بطرس" حواري المسيح. والصليبيون هم الذين اطلقوا الاسم على الموضع بعد ان بنوا القلعة فيه على ان هذا الموضع كان له اسم اخر فيما سبق ذلك من العصور فقد كان اسمه "هاليكارناسوس" وهو الاسم الذي افتتن به جواد شاكر منذ وصوله الى المكان فصار يوقع على كل كتاباته باسم (هاليكارناس بالك جي سي) اما كلمة بالكجي فهي تركية وتعني بائع السمك لان جواد شاكر اشتغل مع بائعي الاسماك فترة من الزمن بعد عودته من انجلترا والتصق اللقب بجواد شاكر حتى نسي اسمه الاصلي.

لم تتم عملية نقل جواد شاكر من انقرة الى منفاه فوراً بل كان عليه التنقل مخفوراً من مركز بوليس الى اخر عبر قرى متباعدة، ولم يبلغ غايته بودروم الا بعد ستة اشهر وكان التنقل يتم على ظهور البغال، اذ لم يكن طريق بودروم معبداً واثناء تلك الرحلة الطويلة تعرض جواد شاكر الى اغرب التجارب والاحداث.

عند دخول جواد شاكر قلعة بودروم اذهله المنظر الطبيعي الخلال الذي وقع عليه بصره في البحر الازرق المتالق الممتد الى الابدية، الهدوء التام المخيم على المكان، الجبال التي تطل على البحر متاملة، وكأنها تستأثر بالجمال دون منافس او رقيب. في هذا الوقت كان جواد شاكر رجلاً قد حنكته التجارب.

كيران ديزي ساحرة الأدب الهندي الجديدة

ترجمة د. سندس فوزي فرمان

ولدت كيران ديزي في دلهي وتعيش اليوم في الولايات المتحدة. حصلت على جائزة "بوكر برايز" في عام ٢٠٠٦ عن روايتها "أرث الخسارة" التي أرادت المؤلفة أن تجعل منها شاهدا على العولمة وآثارها المدمرة. تتأرجح مواضيع الرواية بين تاريخ الهند، الهجرات الحديثة وخيبات الباحثين عن أرض الذهب في الغرب. "أرث الخسارة" يسكنها العديد من الشخوص الباحثين عن هويتهم.

ليس سهلا أن تكون الفتاة ابنة كاتبة مشهورة. عاشت كيران ديزي في ظل الكاتبة الهندية الكبيرة أنيتا ديزي. وتحققت المعجزة فقد استطاعت البنت أن تقلد أمها من دون أن تكون نسخة عنها حيث استطاعت أن تجد لونها الخاص بها ونغمتها المميزة. وكانت هذه النغمة مزيجا رائعا جعلها تقطف جائزة "بوكر برايز" باستحقاق وذلك عام ٢٠٠٦ عن كتابها "أرث الخسارة". ترجمت هذه الرواية إلى ثلاثين لغة تقريبا وهي من الروايات التي تحظى بمنزلة رفيعة اليوم في الأدب الهندي. تحكي كيران ديزي قائلة: "لعبت أمي دورا كبيرا في حياتي فبفضلها عشت دوما في أجواء الأدب والفن. وعندما بدأت بالكتابة تعاملت معي بكل جدية بالرغم من ان ذلك العمل كان محفوفا بالمخاطر بالنسبة لي لأنني أردت أن أتبع نموذجا صعبا".

ولدت كيران ديزي في ١٩٧١ في دلهي وعاشت صباها هناك ثم قادها تعليمها ودراستها إلى الذهاب إلى إنكلترا ومن ثم إلى الولايات المتحدة حيث تعيش الآن. وعندما نسألها عن أولئك الكتاب الذين تعتبرهم معلميها نجدها تذكر لنا كل من غابرييل غارسيا ماركيز، فلانري أوكونور، كنزابورو أوي، جوان رولفو. وهناك أيضا إيتالو كالفينو مؤلف رواية "البارون الجاثم على الغصن" والذي يلقي بظلالها على روايتها الأولى ذات النكهة الخاصة والتي كانت تحمل عنوان "الشيخ فوق الشجرة" وهي قصة رجل يحب التأمل وقرر أن يترك هذا العالم الدنيء ويعيش على غصن شجرة جوافة دون أن يدري إن هذا الصعود سيجعل منه فيما بعد آلهة محلية أو نبياً جديداً في الهند المهووسة بفكرة المطلق. "بدأت بهذا الكتاب أثناء دراستي حيث سجلت في أحدى ورش الكتابة في جامعة كولومبيا" تحدثنا كيران ديزي بهذا الخصوص وهي منهمكة في مطبخ شقتها الواقعة في بروكلاين. تكلمنا وهي تقضم البسكويت "كي يعطيني العزيمة على العمل" أما الشاي فهو وقودها وقيلولة الساعة الثانية ظهرا راحتها. أما بقية الوقت فليس هناك سوى العمل "مبكرا جدا في الصباح وبمجرد القيام من السرير وكذلك متأخرا في المساء".

عمرها الآن ٣٥ عاما وهي الآن مشهورة بفضل روايتها الثانية "أرث الخسارة". هذه الرواية عبارة عن حكاية-رحلة حيث تنسج خيوطها بين الهاملايا ونيويورك ؛ في هذه البوتقة الهائلة التي تمثل عالمنا اليوم.

"عملت بحدسي تماما في كتابة السيناريو حيث كنت أتبع خط انفعالاتي. كان قصدي من هذه الرواية هو أن أراقب ما تعنيه التعددية الثقافية اليوم وكيف يصطدم العالم الثالث والغرب. كما إن هناك سؤالاً دائماً يسكن جوارحي ألا وهو لماذا أصبحت هذه الفجوة بين الأغنياء والمعدمين أعمق من ذي قبل وبشكل نهائي غير قابل للتغيير أو الإصلاح؟ يكمن البؤس في أصغر لقمة نبتلعها، في ملابسنا التي عمل في صناعتها أناس فقراء جدا في الجانب الآخر من العالم".

تأخذ هذه الكلمات معناها الكامل إذا تتبعنا الطريق المأساوي لأحدى أكثر الشخصيات تأثيرا في روايتها "أرث الخسارة" ألا وهي شخصية بيجو المثيرة للشفقة. هرب هذا الشاب الهندي من بلده الأم جاهلا بأنه سيحط الرحال في الجحيم. كان هذا الشاب يعمل لعشرة ساعات متواصلة ومنهكة يوميا وليس له من متاع في هذه الرحلة سوى المعاناة والذل الذي يعيشه العمال الذين يعملون في السر وبشكل مخالف للقانون. "ماذا سيكون حال عملك دوننا نحن الذين نعيش كالخنازير؟" يسأل بيجو أحد أصحاب العمل قبل أن يقرر العودة إلى بلده "وهو أكثر فاقة مما كان عليه عند رحيله منه".

يعيش بيجو في مدينة بشمال الهند حيث توجد سلسلة الجبال التي تقع فيها قمم كانشنجونغا الخمس والتي تبدو منقوشة بالحجر ومرصعة بالثلج كما إن أشعة الشمس تحيل هذه القمم إلى تيجان من الذهب. تضع كيران ديزي اضطراب البشر وقلقهم كحالة معاكسة أمام هذا الجمال الساحر لهذه الجبال الثابتة والباقية إلى الأبد. في روايتها هناك تمجيد لهذا الجمال الخلاب الذي تطريه الكاتبة بأسلوب وجداني رائع كما نسمع في الوقت نفسه كلام شخوص آخرين في الرواية وكل واحد منهم هو أيضا يمثل أحد النماذج الموجودة في الهند المعاصرة. فهناك مثلا جاموبهية ذلك القاضي المسن المسحور بالغرب وأضوائه. وهناك أيضا حفيدته سي اليتيمة الضائعة وسط "هذه البلبلة المعقدة" لأمة شوهتها تجارة السلاح والتطرف الديني المقيت وهستريا الهوية. هناك أيضا شخصية نوني الرقيقة وشيخها الروحي نيبول. هناك أيضا غيان المستعد لخيانة أقاربه بسبب تعصبه لقضية الناشطين النيباليين.

الهند؟! "سفينة توشك على الغرق" تجيبنا كيران ديزي. إلا إن روايتها ليست مرافعة اتهام مريرة أو تصفية حسابات ضد أحد ما إنما هي قصيدة شعر طويلة تحاول من خلالها الكاتبة الشابة أن ترتق جروح تلك الأرض الممزقة وتعترف كيران ديزي قائلة: "كلما كنت أكتب أكثر كان حنيني يزداد أكثر". خرجنا من منزلها وقد أصابتنا عدوى كآبتها.

هكذا انتهى الحوار مع الأديبة التي أطلق عليها أحد النقاد لقب "ساحرة الأدب الهندي الجديدة".